

الدرس الخامس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } الآية [يونس: ١٠٦-١٠٧] .

هذه الترجمة التي عقدها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هي نظير ما قبلها في بيان أنواع من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، وقد تقدم قبل هذه الترجمة «باب من الشرك الذبح لغير الله» و«باب من الشرك النذر لغير الله» وهذه الترجمة في بيان أن الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله عموماً فإنه من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، لأن الدعاء ومنه الاستغاثة عبادة لا يجوز أن تُصرف ولا أن يلتجأ فيها إلا إلى الله عز وجل الذي بيده الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والقبض والبسط ، والعز والذل ، والخفض والرفع ، وبيده تبارك وتعالى أزمة الأمور ومقاليذ السماوات والأرض ، فوحده عز وجل الذي يُلتجأ ، وحده الذي يتوكل عليه ، وحده تبارك وتعالى الذي يُدعى ويستغاث به ؛ فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله فإنه يكون بذلك قد عبد غير الله ، ومن عبد غير الله يكون أشرك بالله سبحانه وتعالى الشرك الأكبر فيكون من الكافرين، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ؛ فسمى من يدعو غير الله تبارك وتعالى كافراً أي كفراً أكبر ناقلاً من ملة الإسلام .

فإذاً هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أن من الشرك الأكبر الناقل من الملة أن يُدعى غير الله ، أو أن يستغاث بغير الله ، أو أن يطلب المدد والعون والنصر من غير الله تبارك وتعالى ، لأن الدعاء عبادة ومن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله . قوله رحمه الله ((باب من الشرك)) أي الأكبر الناقل من الملة ((أن يستغيث بغير الله)) والاستغاثة: هي طلب الغوث ؛ وتكون في الشدائد والكربات والنوازل العظيمة ، فالداعي في الكرب والشدّة والأمر العظيم يسمى «مستغيث» ، وفعله يسمى «استغاثة» ، والسين في قوله «أن يستغيث» للطلب؛ أي يطلب الغوث من غير الله تبارك وتعالى ، أي يطلب أن ينجيه من شدته وكرهه وما نزلت به من شدة يطلب ذلك من غير الله فإن ذلك من الشرك الأكبر . والاستغاثة دعاء وطلب لكنها في الشدائد والكربات ، فإذا كان الدعاء والسؤال في شدة وكرب فإنه يسمى «استغاثة» .

ثم قال رحمه الله تعالى ((أو يدعو غيره)) أي يلتجئ بالسؤال والدعاء إلى غير الله تبارك وتعالى .

وعطف الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص ؛ لأن الاستغاثة دعاءٌ لكنه دعاء مخصوص بالكرب والشدة ، والدعاء عام ، الدعاء يدخل تحته الاستغاثة ، ويدخل تحته الاستعاذة ، والاستعانة ، والاستنصار ، والاستغفار وغير ذلك ، هذه كلها دعوات والتجاءات إلى الله سبحانه وتعالى . فإذا عطف الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص . والعام يُعطف على الخاص ، وكذلك العكس يعطف الخاص على العام . فالعطف هنا من باب عطف العام على الخاص .

إذاً هذه الترجمة فيها بيان أن دعاء غير الله تبارك وتعالى شركٌ بالله عز وجل ، وفي الترجمة تخصيص للاستغاثة التي هي من الدعاء ، وعادةً التخصيص يصار إليه للاهتمام بالأمر المخصّص ، يعني يُعطف الخاص على العام أو العكس ويكون المخصص حُصّاً لمزيد اهتمام به وعناية بتخصيصه بالذكر مع دخوله في اللفظ العام ؛ وذلك أن الاستغاثة عبادةٌ وُجد خلقٌ من الناس صرفوها لغير الله تبارك وتعالى ! مع أن المشركين الأول كانوا في الشدائد يخلصون -وسيأتي بيان ذلك- وفي الرخاء يشركون ، إذا أصابتهم الشدة أخلصوا دينهم لله ويعلنونها صراحة كما سيأتي أيضاً إيضاح ذلك يعلنونها صراحة أن الذي ينجيهم في الشدة ولا ينجيهم غيره هو الله ، ولهذا قال الله في القرآن : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ؛ إذا ركبوا في الفلك أي وجاءتهم الرياح العاصف القاصف اشتدت بهم الأمور تلاطمت الأمواج أخلصوا دينهم لله ، وإذا نجاهم سبحانه وتعالى إلى البر إذا هم يشركون ؛ أي عادوا إلى شركهم ، والله سبحانه وتعالى قادر على أخذهم في البر والبحر ، ليس مجيئهم في البر أمرٌ تتحقق به السلامة بل الهلاك قد يكون في البر نفسه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ما معنى «ضل من تدعون إلا إياه» ؟ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي الشدة وعانيتم الموت وتلاطمت الأمواج ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي كل من تدعوهم وتتعلق قلوبكم بهم وتسالوهم كلهم يذهبون عن عقولكم ولا يبقى إلا الله وحده في عقولكم وفي قلوبكم والتجائكم ودعائكم ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُوراً ﴾ (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ، أو أيضاً أمر آخر في البر ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِلاً ﴾ ، ثم أمر آخر ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أي في البحر ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الْريِّحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩] . وهذا يبين سفه عقول المشركين ؛ هذا الذي أيقنوا أنه لا ينجيهم في البحر إلا هو كذلك لا ينجيهم في البر إلا هو ، لأنه قادرٌ عليهم في البر والبحر ، والأمر بيده سبحانه وتعالى .

فالشاهد أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء ، أما الشدائد التي يكون فيها الاستغاثة فإنهم يخلصون لله سبحانه وتعالى ، لكن عظم البلاء في أقوام جاءوا بعد ذلك فصاروا يشركون في الرخاء والشدة ، ولهذا وجدت الاستغاثة بغير الله في الشدائد ، حتى في معاناة الغرق في البحر يهتف بعضهم بمن يستغيثون بهم ممن يسمون بالأولياء أو الصالحين أو غير ذلك؛ يهتفون بأسمائهم وهم في الغرق وفي الشدة !! في الموضوع الذي يخلص فيه المشركون الأول يشرك هؤلاء ويستغيثون بغير الله سبحانه وتعالى .

فالمقام يحتاج فعلاً إلى تخصيص مزيد اهتمام به مع أنه داخل في الدعاء عموماً ، والدعاء حق لله لأنه عبادة ، والعبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله ، وفي القرآن مواضع وصف الله سبحانه وتعالى الدعاء فيها بأنه عبادة مثل قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] سمي المستكبر عن دعائه مستكبراً عن عبادته . فالدعاء عبادة ، بل جاء هذا صريحاً في السنة قال عليه الصلاة والسلام في حديث النعمان بن بشير المخرج في السنن ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)) وتلا الآية المتقدمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

فإذاً هذه الترجمة في بيان أن صرف الدعاء لغير الله ومنه الاستغاثة شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام .

وساق رحمه الله تعالى كما هي طريقته المعهودة شيئاً من الأدلة؛ فبدأ بقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والخطاب هنا - تأملوا يا إخوان - الخطاب هنا لسيد ولد آدم وقدوة الخلائق أجمعين وأفضل عباد الله صلوات الله وسلامه عليه يقول له ربه جل في علاه ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ !! وهو عليه الصلاة والسلام سيد المخلصين وإمام المتقين ، برأه الله جل وعلا وحماه ووقاه ونجّاه من الشرك حتى منذ نشأته ، مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي وفي أقوام مشركين يعبدون غير الله ولا يُعرف بينهم إلا عبادة غير الله سبحانه وتعالى نشأ مبرأً من ذلك .

وقول الله عز وجل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ [الضحى: ٧] ليس المراد بالضلال الشرك ، وإنما الضلال المراد به عدم المعرفة بالتفاصيل تفاصيل الدين والشرائع والأحكام كما قال الله في سورة الشورى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي هذه التفاصيل لا تعلمها وإنما جاء الوحي إليك بها فعلمتها ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «من قال إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان على شيء من دين قومه فقد أعظم الفرية» ، فالله سبحانه وتعالى برأه من ذلك وحماه ووقاه من ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

وفي هذه الآية يقول الله مخاطباً نبيه ومصطفاه ورسوله ومجتباه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والخطاب هنا كما بيّن أهل العلم خرج مخرج الخصوص والمراد به العموم ، وإذا كان سيد ولد آدم يُخاطب بهذا الخطاب ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي فعلت ذلك دعوت غير الله ، سألت غير الله ، التجأت إلى غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ ؛ هذا يستفاد منه أن من دعا غير الله أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله مهما كان فإنه يكون من الظالمين ، والمراد بالظلم : الشرك بالله سبحانه وتعالى ، أي يكون من المشركين بالله . الشخص مهما كانت مكانته إن صرف شيئاً من العبادة لغير الله كان بهذا الصرف للعبادة لغير الله مشركاً بالله كافراً بالله العظيم ، قد قال الله تعالى في موضع آخر لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٧] .

قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ قوله «مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» هذا وصفٌ لازم لكل من يدعى غير الله ، كل من يدعى غير الله لا ينفع ولا يضر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن أن يملك شيئاً من ذلك لغيره . ففي الآية إبطالٌ للشرك وذكرٌ للبرهان البين والدليل الواضح على بطلان التعلق بغير الله ، لأن دعاء غير الله دعاءٌ لمن لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا لنفسه ولا لغيره .

قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ قوله «مِنْ دُونِ اللَّهِ» يتناول كل من يدعى غير الله سبحانه وتعالى من الملائكة والأنبياء والأولياء والأحجار والأشجار وغير ذلك كل هذا يدخل تحت قوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي لا يملك لك نفعاً ولا يملك لك ضراً ، إن دعوته لم تنتفع بدعائك له ، وأيضاً لا يملك لك ضراً ؛ وهذا يستفاد منه فائدة جلية ومهمة : بعض العوام يخوفون بمن يسمون بالأولياء وأتحم بيدهم كذا وييدهم كذا إلى آخره ؛ هذا كله باطل ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فلا يضر غيرهم ، هو لا يملك لنفسه فكيف يملك شيئاً من ذلك لغيره!! .

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي ذلك وهو دعاء غير الله ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك ؛ لكن السياق يبين أن من فعل ذلك مهما كان ومهما بلغ قدراً ومنزلة فإنه يكون من الظالمين ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ ، والمراد بالظالمين : أي المشركين الكافرين كما قال الله سبحانه وتعالى فيما ذكره في وصية لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ؛ فالمراد ﴿مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي : المشركين الشرك الأكبر الناقل من الملة الموجب للخلود في النار يوم القيامة .

قال: ﴿وَإِنْ يُمَسِّسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ و «ضر» جاءت نكرة في هذا السياق تفيد العموم ؛ أي نوع من الضر ؛ في بدنك ، في مالك ، في صحتك ، في ولدك ، في تجارتك ، في أي شيء ﴿وَإِنْ يُمَسِّسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يزيل الضر ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى الذي بيده أَرْزَقَ الأمور سبحانه وتعالى .

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ؛ إن أرادك الله سبحانه وتعالى بخير و«خير» أيضاً نكرة في هذا السياق فتفيد العموم ؛ إن أرادك الله بخير في المال أو في الصحة أو في الولد أو في التجارة أو في غير ذلك ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي ليس هناك أحدٌ يقدر على منع ما أرادته الله سبحانه وتعالى لك من خير وفضل ونعمة ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ)) ويقول الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢٠] فالفضل والمن والعطاء كله بيد الله ، الأمر بيده سبحانه وتعالى لا شريك له .

قال: ﴿يُصِيبُ مِنْ شِئَاءِ مَنْ عِبَادُهُ﴾؛ الفضل بيده ويصيب به من يشاء ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] .

إذاً هذه الآية فيها النهي عن الشرك والتحذير منه وبيان خطورته ، وأن من يدعى غير الله ويستغاث به ويلتجأ إليه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا عطاءً ولا منعاً فضلاً عن أن يملك شيئاً من ذلك لغيره

قال رحمه الله :

وقوله : { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } الآية [العنكبوت: ١٧] .

وقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ؛ هذه الآية ذكرها الله سبحانه وتعالى في سياق محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه وإقامته عليه السلام البراهين والحجج البينات الظاهرات الدالة على وجوب إخلاص الدين لله عز وجل وإبطال الشرك ، ففي هذا السياق جاء قوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي عنده لا عند غيره ، فلا تلجئوا إلا إليه ، ولا تطلبوا الرزق إلا منه ، ولا تُنزلوا حاجاتكم وطلباتكم ورغباتكم إلا به سبحانه وتعالى ، لجوءاً إليه واستغاثةً به وطلباً منه وحده جل وعلا لأن الرزق بيده ، وهو الرزاق سبحانه وتعالى الذي بيده الأرزاق وبيده النعم وبيده المنن عز وجل .

قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ هنا أسلوب من أساليب الحصر الدال على الإخلاص ، إخلاص طلب الرزق من الله وحده دون سواه ، لأنه قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ قدّم المعمول فأفاد الحصر ، أصل الجملة فابتغوا الرزق عند الله ، وهذا التقديم يفيد الحصر ، فقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ في قوة دلالتها كقولك "ابتغوا الرزق عند الله لا عند غيره سبحانه وتعالى" ؛ ففيها الإخلاص في الطلب . وهذا يدخل فيه أيضاً معنى الشدائد والاستغاثة ، لأن طلب الرزق قد يكون في مواضع شدة وكرب ؛ يحتاج الإنسان رزقاً من الله سبحانه وتعالى في شيء يتغذى به أو رزقاً في صحته يسلم بها من آفة أو عطب أو نحو ذلك ، فكل ذلك لا يُلتجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالآية فيها إخلاص الدعاء لله عز وجل والالتجاء إليه وحده وعدم صرف شيء من ذلك لغيره .

قال رحمه الله :

وقوله : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } الآيتين [الاحقاف: ٥-٦] .

قال رحمه الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿ هذه الآية الكريمة من أبين ما يكون في بطلان الشرك ودعاء غير الله سبحانه وتعالى ، وأن من يدعو غير الله في منتهى الضلال ، وفي غاية السفه والغي والانحراف ، وأنه لا أضل منه . والاستفهام في قوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ بمعنى النفي ؛ أي : لا أحد أضل ممن كان كذلك يدعو غير الله .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ لا يملك استجابة ، لا يملك عطاءً ، لا يملك رزقاً ، لا يملك حياةً ولا موتاً ولا نشوراً ، لا يملك ذلك لنفسه فكيف يملكه لغيره !! فإذا من دعا غير الله فهو في منتهى الضلال ، لأن الذي يدعو غير الله سبحانه وتعالى لا يستجيب له ولا يملك أصلاً استجابةً له ﴿ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

۲۳

وانظر أيضا في قصة عكرمة ابن أبي جهل وكان ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمهم عندما دخل مكة عام الفتح ، أربعة كان النبي عليه الصلاة والسلام أهدر دمهم عام الفتح وقال عليه الصلاة والسلام للصحابه ((من وجدتموه من هؤلاء الأربعة ولو كان متعلقا بأستار الكعبة فاقتلوه)) ، كان من هؤلاء الأربعة عكرمة ابن أبي جهل ، ففر -والحديث في النسائي وغيره- فر من مكة وخرج وركب الفلك ، فتعرضت السفينة التي كان قد ركبها تعرضت للغرق أصابها شدة ، فقال أصحاب السفينة للراكبين فيها لمن هم على السفينة : «أخلصوا فإنه لا ينجيكم في هذه الشدة إلا الإخلاص» ، قال عكرمة : «لئن كان لا ينجيني في هذه الشدة إلا الإخلاص فإنه لا ينجيني في غيرها إلا الإخلاص» ؛ إذا كان لا نجاة لي في هذه الشدة إلا بالإخلاص فلا نجاة لي في أي مكان إلا بالإخلاص ، فتح الله على قلبه من هذا الموقف وقال : «الله علي عهد لئن أنجاني الله من هذه لأذهبن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يدي في يده ولأجدنه عفواً كريماً» لأنه عليه الصلاة والسلام أهدر دمه ، وجاء متخفياً لأنه لو رآه أحد من الصحابة أطاح برأسه ، النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أينما تجدوا واحداً من هؤلاء فاقتلوه)) ، فجاء متخفياً إلى أن وضع يده بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم رضي الله عنه ، وبعد إسلامه قال للنبي عليه الصلاة والسلام : «إن الله عليّ كل موقفٍ وقفته في الصد عن دين الله لأقفن مثليه في الذب عن دين الله ، وكل نفقة أنفقتها في الصد عن دين الله لأبذلن مثليها في سبيل الله» ، ودخل في معركة اليرموك وقاتل قتالاً شديداً دفاعاً عن الإسلام ومنافحة عن الدين إلى أن قُتل في تلك المعركة ، فلما نظروا في جسده بعد أن قُتل وجدوا فيه أكثر من سبعين ما بين طعنة وضربة سيف ورمية نبل ونحو ذلك ، أكثر من سبعين من قوة بلائه وشدته في الدفاع عن دين الله ، وأخذ على نفسه عهداً أن يكون كذلك ومات في سبيل الله رضي الله عنه وأرضاه .

فالشاهد: أن القوم كانوا يعرفون أنه لا ينجني في الضراء وفي الكرب وفي الشدائد إلا الله ، إذاً هذا دليل وبرهان على وجوب الإخلاص لله في كل الأحوال ، مثل ما أخذ هذا البرهان عكرمة ، عكرمة أخذ هذا البرهان من تلك الواقعة التي حصلت له وقيل «أخلصوا لا ينجيكم في هذه الشدة إلا الإخلاص» أخذ من ذلك أنه لا نجاة له في أي مكان إلا بالإخلاص ، وعاهد الله إن نجاه ليخلصن دينه لله سبحانه وتعالى في كل الأحوال وفي جميع المقامات ، وفعلاً كان ذلك سبب إسلامه ودخول الإسلام في قلبه .

فالله جل وعلا يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والخطاب للمشركين ، يقال أنتم تعرفون أنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله؛ إذاً هذا برهان يجب أن تستفيدوا منه لتخلصوا دينكم لله سبحانه وتعالى .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي إذا أصاب الإنسان سوء أصابه بلاء أصابه أمر يسوءه لا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى ، مثل ما تقدم معنا في قوله ﴿وَإِنْ يُمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ .

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي : يخلف بعضكم بعضاً في هذه الأرض؛ قبلكم أناس كانوا على الأرض فتوفاهم الله عز وجل ثم خلفتموهم على هذه الأرض ثم تموتون ويخلفكم آخرون وهكذا .

﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ بعد أن ذكر البرهان دعاهم إلى التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أهلك من يستحق أن يدعى ويلجأ إليه وتُصرف له العبادة مع الله سبحانه وتعالى .

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قليلٌ إعمالكم لعقولكم بالتذكر والتفكير والتأمل في الأمور ، أي أنكم لو تذكّرتُم وتدبرتم لعلمتم أن ما أنتم عليه من شرك أنه في غاية السفه والمنافاة للعقول السليمة ، وأن الواجب عليكم أن تخلصوا دينكم لله سبحانه وتعالى وأن تفردوه وحده جل وعلا بالعبادة .

قال رحمه الله :

وروى الطبراني بإسناده : أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل» .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث المخرج في المعجم للطبراني ، قال : ((وروى الطبراني بإسناده)) ويؤيد رحمه الله تعالى لراوي الحديث من الصحابة ؛ وهو عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

قال : وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله» ؛ هذا الحديث كما قال المصنف رحمه الله تعالى رواه الطبراني في المعجم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وتكلم في إسناده من جهة عبد الله بن أبي لهيعة ، وهذا الحديث مع ما فيه من كلام يورده أهل العلم لصحة معناه واستقامة مدلوله وموافقته للنصوص الواردة في هذا الباب ، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما اعترض عليه في إيراده للحديث قال - كما جاء في كتابه «الاستغاثة» - إنه ساقه رحمه الله تعالى مع غيره من الأدلة اعتضاداً لا اعتماداً ، فمثل هذه الأحاديث يوردها أهل العلم للاعتضاد لا للاعتماد ، وأما من يصحح الحديث أو يرى لحسن الحديث فالأمر فيه واضح ، لكن من يرى أن سند الحديث فيه ضعف أو فيه كلام ويورده يكون أوردته اعتضاداً لصحة معناه واستقامة مدلوله وموافقته للأدلة التي سيقّت في الباب .

قال : ((أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين)) المنافق المشار إليه هنا: هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين .

((كان يؤذي المؤمنين فقال بعضهم)) جاء في بعض الروايات أن القائل أبو بكر رضي الله عنه .

((فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم)) ماذا كان مراده بقوله نستغيث برسول الله ؟ هنا استحضروا أن الاستغاثة بالمخلوق على نوعين :

١ - استغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فهذه شرك أكبر ناقلة من ملة الإسلام ، من صور ذلك : لو أن أقواماً كانوا في سفينة وتلاطمت الأمواج بهم وعابنوا الغرق فأخذوا يهتفون "مدد يا شيخ فلان" ، هذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . ولهذا من الطوائف اللطائف قرأتها في حاشية على أحد كتب التفسير قال : إن قومًا كانوا في سفينة وعابنوا الموت بسبب تلاطم الأمواج فأخذ كل من هؤلاء يهتف بشيخه ، الذي يهتف بالبدوي والجيلاني إلى آخره

كلّ يهتف بشيخه ، فكان على السفينة رجل مسنّ موحّد فرفع يديه وقال : " يا رب أغرق أغرق فما على السفينة من يعبدك " ، يعني كل من على السفينة لا يعبدونك كلهم ملتجئين إلى غيرك . فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هذه من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

٢- النوع الثاني من الاستغاثة : استغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق ، ومادنا في البحر تأتي بمثال آخر في البحر ؛ لو أن شخصاً نزل في طرف البحر ثم زلّت قدمه وعان الغرق وكان حوله بعض الأشخاص الذين يُحسنون السباحة وقال : "أغيثوني أدركوني الحقوني أنا أغرق" إلى آخره ، استغاثته هذه هل هي من الشرك ؟ هذه منها قوله تعالى ﴿ فَاسْتَغَاثُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ [الفصل: ١٥] استغاثة القبطي بموسى عليه السلام استغاثة بشخص قوي حاضر أمامه في أمر يقدر عليه ، فليست من الشرك في شيء .

إذاً الاستغاثة على نوعين :

١- استغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذه من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

٢- واستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي القادر في الأمر الذي يقدر عليه؛ فهذه ليست من الشرك .

الصحابة لما قالوا «قوموا نستغيث برسول الله» أي النوعين المراد هنا ؟ فيما يقدر عليه أو فيما لا يقدر عليه ؟ أرادوا فيما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، «قوموا نستغيث برسول الله» : أي نخبره بخبر هذا المنافق ونُطلعه على حاله ليأمر بقتله أو ليأمر بحبسه أو يأمر بطرده أو غير ذلك ، هذا المراد بقولهم .

((فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إنه لا يستغاث بي)) انظر حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد وصيانته لجناحه وسلّمه للذرائع، وأيضاً تنبيههم لمراعاة الأدب والعناية بهذا المقام قال : ((إنه لا يستغاث بي)) ؛ مع أنهم في تلك الاستغاثة طلبوا الذهاب إلى النبي في أمر يقدر عليه من حبسٍ أو طرد أو قتل أو غير ذلك هذا الذي أرادوه ، لكن صيانةً لمقام التوحيد وحمايةً لحماه قال : ((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)).

وموضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة : ((إنما يستغاث بالله)) ، قوله «إنما يستغاث بالله» هذا أمر دلت عليه الدلائل الكثيرة والشواهد العديدة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومنها الآيات التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .

وهذا تقدم بيانه وإيضاحه .

الثانية : تفسير قوله : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ } .

الثانية : تفسير قوله : {وَلَا تَدْعُ} والخطاب كما مر معنا للنبي عليه الصلاة والسلام {مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} وهذا وصفٌ لكل من يدعى من دون الله سبحانه وتعالى .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

«أن هذا» أي دعاء غير الله تبارك وتعالى «الشرك الأكبر» أي الناقل من ملة الإسلام الموجب للخلود في النار يوم القيامة ، والآية دلت على ذلك قال : ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين .

الرابعة : أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

«أن أصلح الناس لو فعله» أي الشرك «إرضاءً لغيره صار من الظالمين» . قوله أن أصلح الناس هذا مستفاد من الخطاب الذي في الآية الله عز وجل قال لنبيه عليه الصلاة والسلام {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} ؛ فهذا يفيد أن أصلح الناس لو فعله كان من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها .

والآية التي بعدها هي قول الله سبحانه وتعالى {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} و مر معنا بيان معناها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرا .

«كون ذلك» : أي دعاء غير الله «لا ينفع في الدنيا» أي من يدعو غير الله لو استمر طول دهره ومدة حياته يدعو غير الله لا ينفعه ذلك إطلاقاً في الدنيا ، لأن من يدعو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً فضلاً عن يملك شيئاً من ذلك لغيره ، إضافةً إلى أنه يضره في الآخرة لأنه كفر ناقل من الملة ، وهذا مستفاد من قوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ} إلى آخر الآية .

السابعة : تفسير الآية الثالثة .

وهي قوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} .

الثامنة : أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه .

«أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله» كما مر معنا في قوله {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} ؛ وهذا فيه وجوب إخلاص طلب الرزق من الله وحده دون سواه ، «كما أن الجنة لا تطلب إلا منه» والجنة هي الرزق الذي هو أتم ما يكون وأكمل ما يكون في نيل الرزق والفوز به ، فالرزق الذي هو الجنة كما أنه لا يُطلب إلا من الله فأيضاً عموم الأرزاق لا تُطلب إلا منه وحده سبحانه وتعالى .

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

وهي قول الله تبارك وتعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ إلى آخر الآية وقد تقدم تفسيرها.

العاشرة : ذكر أنه لا أضل ممن دعا غير الله .

العاشرة : ذكر أنه لا أضل ممن دعا غير الله وهذا مأخوذ من قوله {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ} والاستفهام هنا بمعنى النفي ، أي لا أحد أضل ممن يدعو غير الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه .

أنه - أي المدعو غير الله سبحانه وتعالى - غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه ؛ أي من يدعو المقبورين ويفزع إليهم ويلتجئ ويعرض حاجاته إليهم إضافة إلى أنه لا أضل منه فإن هذا الذي يدعوه ويستغيث به لا يدري به ولا يسمع دعاءه ولا يعلم بحاله، بل هو غافل عنه .

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له .

لقوله تبارك وتعالى {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٌ} ، فتلك الدعوة إضافة إلى ما سبق فإنها سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، كما قال الله تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٌ} ؛ كانوا لهم أعداء بسبب ماذا؟ بسبب دعاء هؤلاء لهم من دون الله تبارك وتعالى .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} ، فسمى تلك الدعوة عبادة وهذا من الشواهد القرآنية على أن الدعاء عبادة .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

كفر المدعو بتلك العبادة التي هي الدعاء ؛ دعاء الأموات من دون الله يكون بذلك كافراً { وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } أي كافرين بالله سبحانه وتعالى بسبب عبادتهم لهم من دون الله .

الخامسة عشرة : أن هذه هي سبب كونه أضل الناس .

أن هذه الأمور أي أن من يدعى غافل لا يدري عن الداعي ، وأن الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي ، وتسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو ، وكفر المدعو بتلك العبادة ؛ هذه الأسباب كلها تبين كون هؤلاء لا أحد أضل منهم، أن هذه الأمور هي سبب كونه أي من يدعو غير الله أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة .

أي قوله تبارك وتعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ إلى آخر الآية وقد تقدم تفسيرها .

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .

هذا أخذه رحمه الله تعالى من الآية الكريمة ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي أن الله خاطبهم بأمر يقرون به ويعلمونه ؛ أنه لا يجيب في الضرورة والشدّة إلا الله سبحانه وتعالى ، ومن يطالع قصصهم وأخبارهم ووقائع أحوالهم يجد ذلك ، مثل ما أشرت في قصة حصين وقصة عكرمة ، والأخبار في ذلك عنهم كثيرة ، والقرآن أيضا في مواضع عديدة دل على ذلك مثل ما أشرت إليه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ، وقوله ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ ولها نظائر عديدة في القرآن . إذاً الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان بأنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين ؛ أي يدعون الله مخلصين له الدين وإذا كانوا في الرخاء أشركوا معه تبارك وتعالى غيره .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله .

حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله عندما قال الصحابة «قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق» قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)) ؛ فهذا فيه حمايته حمى التوحيد ، وفيه التأدب مع الله سبحانه وتعالى ، فلأجل ذلك قال لهم عليه الصلاة والسلام ما قال .

وبهذا تكون هذه الترجمة انتهت بما فيها من مسائل .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .